

الشرق الأوسط

اسم الكتاب: جغرافيا الشرق الأوسط - تحولات على مشارف القرن الحادي والعشرين

تأليف: أرنون سوفير وداليت غروس-لان

إصدار: "عام عوفيد"

الفصل الثالث: تحولات في سكان ومجتمع الشرق الأوسط

إعداد: حاييم حداد

تحولات في سكان ومجتمع الشرق الأوسط

خلال المائتي عام الأخيرة، نما عدد السكان في الشرق الأوسط بمعدل ملحوظ، واليوم يعيش في الشرق الأوسط أكثر من 300 مليون نسمة.

الخصائص الديموغرافية لسكان الشرق الأوسط

زيادة طبيعية إيجابية تُعد من الأعلى في العالم ومضاعفة عدد السكان كل 20-30 سنة

- **معدلات الولادة:** كانت دائماً ولا تزال مرتفعة، وذلك لعدة أسباب:
 - أسباب دينية: الدين الإسلامي ووصايا التكاثر ("تناكحوا تناسلوا")، وتعدد الزوجات للرجل.
 - أسباب اجتماعية: تدني مكانة المرأة، الأمية وقلة الوعي باستخدام وسائل تنظيم النسل، سن الزواج المبكر، والمكانة والشرف اللذان يمنحهما الأطفال، وخاصة الذكور، للوالدين.
 - أسباب اقتصادية: الأطفال يشكلون قوة عمل في القرى الزراعية، ودعمًا اقتصاديًا للوالدين عند بلوغهم سن الشيخوخة.
- **معدلات الوفيات:** على الرغم من ارتفاع معدلات المواليد، فقد انخفضت معدلات الوفيات خلال المئة عام الماضية بفضل التحسينات في المنظومة الصحية والخدمات الطبية: توفير مياه شرب نقية، تحسين شبكات الصرف الصحي، التطعيمات، والأدوية. نتج الانخفاض في الوفيات عن تأثير الحكم الاستعماري الذي طور الطب.
- **الزيادة الطبيعية:** تتراوح بين 2% إلى 3.5% سنوياً، ومعنى ذلك أن عدد سكان الشرق الأوسط يتضاعف كل 20-30 عاماً! (بخلاف دول غرب أوروبا حيث تنخفض الزيادة الطبيعية عن 1% أو تكون سلبية، وتستغرق مضاعفة السكان بين 70 إلى 140 عاماً).

مشكلة "الانفجار السكاني" والنتائج المترتبة عليها

نتيجة للزيادة الطبيعية المرتفعة، تنشأ مشكلة الانفجار السكاني التي تتجلى في عدة مشكلات:

1. **انفجار سكاني في القرى الزراعية:** يتمثل في تقلص مساحة الأراضي الزراعية المخصصة للفرد الواحد.
2. **نقص متزايد في الغذاء ومياه الشرب النقية:** الحاجة إلى إنفاق أموال طائلة على استيراد الغذاء بدلاً من توجيهها للتنمية الاقتصادية. استيراد المواد الغذائية يزيد من تبعية الدولة المستوردة للدول المصدرة.
3. **انفجار سكاني في المدن الكبرى:** نتيجة الهجرة الواسعة إليها وارتفاع الزيادة الطبيعية فيها، مما يسبب نقصاً في أماكن العمل والسكن، تفاقم الفقر والجريمة، ونشوء "اقتصاد البازار" (الأعمال الهامشية والمياومة غير المنظمة) بسبب البطالة العالية.

4. انهيار منظومات البنية التحتية والخدمات العامة: في الدولة عمومًا وفي المدن الكبرى خصوصًا، مثل التعليم، الصحة، الكهرباء، وشبكات الصرف الصحي.
5. اضطرابات اجتماعية وسياسية: هزات اجتماعية واقتصادية داخلية وعدم استقرار الحكم نتيجة الاحتقان الشعبي الناجم عن الضائقة.
6. تشكل "دائرة الفقر".

سبل تقليص الزيادة الطبيعية المرتفعة وتحديد النسل

- أ. النهج المباشر: سن قوانين للحد من الولادات ورفع سن الزواج، تشجيع الإجهاض، حملات توعية وإرشاد لتخطيط الأسرة واستخدام وسائل منع الحمل مع توزيعها مجانًا، وتقديم منح ومكافآت للنساء اللواتي ينجبن عددًا قليلاً من الأطفال.
- ب. النهج غير المباشر: يستغرق وقتًا أطول لكنه يتمتع بفرص نجاح أعلى، ويشمل: التنمية الاقتصادية ورفع مستوى المعيشة، رفع مكانة المرأة، تحسين التعليم ومكافحة الأمية.

صعوبات تطبيق سياسات تحديد النسل في الشرق الأوسط

تواجه السياسات صعوبات لأنها تتعارض مع المعتقدات الدينية؛ فالمجتمع المسلم يُعد محافظًا ودينيًا، وتقاليد إنجاب أعداد كبيرة من الأطفال، وخاصة الذكور، متجذرة في المجتمعات الريفية. من الأسهل تحسين الطب وخفض الوفيات مقارنة بتغيير تقاليد الإنجاب العالي.

- الدول التي تبذل جهودًا كبيرة: مصر، تركيا، الأردن، ودول المغرب العربي (المغرب، الجزائر).
- السعودية لا تتبع سياسة تحديد النسل لأسباب:
 - أ. التدوين الإسلامي المحافظ.
 - ب. وجود مساحات شاسعة خالية وغير مأهولة.
 - ت. الاعتقاد بأن الثروة المالية الناتجة عن النفط كفيلة بحل مشكلة التزايد السكاني.

التباين الإقليمي في المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية

- سوريا، العراق، اليمن، والأردن: زيادة طبيعية تتجاوز 3% سنويًا.
- مصر، الأردن، لبنان، تركيا ودول المغرب العربي: انخفاض بطيء في الزيادة الطبيعية بفعل السياسات الحكومية.
- قطاع غزة ولدى عرب إسرائيل الفلسطينيين: زيادة طبيعية مرتفعة جدًا، وبعد تراجع طفيف في السبعينيات عاودت الارتفاع بين 1980 و1999.
- دول المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب): رغم كونها دولاً إسلامية، فإن معدلات الزيادة والولادة أقل بسبب التأثير الأعظم بأوروبا.
- مصر (طول وادي النيل)، قطاع غزة، سوريا وإيران: واقع يومي من "الانفجار السكاني" (وفق نظرية مالتوس).

"الزخم الديموغرافي" (Demographic Momentum)

حتى لو قرر كل زوج شاب إنجاب طفل إلى طفلين فقط، سيستمر عدد السكان في النمو بمعدل مرتفع طوال 20-30 سنة قادمة؛ لأن غالبية السكان فئات شابة ستصل لسن الزواج والخصوبة خلال 10-20 عامًا. بالتالي، فإن سياسات تحديد النسل لا تكبح النمو السكاني على المدى القصير، بل على المدى البعيد فقط.

العلاقة بين مستوى التنمية ومعدلات الخصوبة

- أ. كلما ارتفع مستوى التنمية، انخفضت الزيادة الطبيعية (علاقة عكسية).

ب. كلما ارتفع مستوى التعليم، قلت الزيادة الطبيعية؛ أظهرت الدراسات في مصر، الأردن، المغرب، اليمن، السودان، سوريا، باكستان، وتونس علاقة وثيقة بين تعليم المرأة ومعدل الخصوبة (الأمهات غير المتعلّقات 7-10 أطفال، والمتعلّقات 4-6 أطفال).

ت. اختلاف بين المدينة والقرية: المرأة الحضرية العاملة خارج المنزل تتجنب أطفالاً أقل، وتزداد نسبة استخدام وسائل منع الحمل مع التحديث والانفتاح الثقافي (في دول المغرب العربي تقترب النسبة من 50%).

ث. كلما كانت المرأة أكثر حداثة وانفتاحاً على الثقافة الغربية، زاد استخدامها لوسائل منع الحمل. ففي دول المغرب العربي (تونس، المغرب، الجزائر)، التي خضعت للنموذج الأوروبي لفترة من الزمن، استخدمت 50% من النساء وسائل منع الحمل لفترة أطول!

تصنيف دول الشرق الأوسط وفق الخصوبة والزيادة الطبيعية

1. دول في تراجع مستمر: مصر (انخفاض من 6.6 أطفال للمرأة في 1950 إلى 3.5 في 1990)، لبنان، المغرب، وتونس.
2. دول تشهد انخفاضاً بطيئاً جداً: سوريا، الأردن، والعراق.
3. دول بلا تغيير يُذكر: ليبيا، عُمان، اليمن، والمملكة العربية السعودية.

هرم الأعمار وتركيب الفئات العمرية

أ. شكل الهرم في معظم الدول ذو قاعدة عريضة (ولادات كثيرة) وقمة ضيقة (متوسط عمر وتوقع حياة منخفض نسبياً).

ب. قرابة 50% من السكان دون سن 15 عاماً، مع قلة كبار السن فوق 65 عاماً ("مجتمع فتي/شباب").
ت. نسبة القوى العاملة (المعيلون) لا تتعدى 30% من إجمالي السكان (مقارنة بنحو 65% في غرب أوروبا)، مما يعني أن 30% فقط يعملون باقي المجتمع غير العامل، مسبباً عبئاً اقتصادياً باهظاً. تُشكل صعوبات توفير السكن للأزواج الشباب الجدد عبئاً اقتصادياً ثقيلاً على الدولة، كما تؤدي هذه الحالة إلى مشاكل في توفير خدمات التعليم والصحة. وتتفاقم مشاكل التوظيف.

ث. في دول النفط الخليجية (الكويت، البحرين، قطر): يظهر تشوه واضح بزيادة أعداد الذكور في الفئة العمرية 20-50 عاماً بسبب استقدام العمالة الوافدة. كما تحرص حكومات الخليج على تشجيع الإنجاب للمواطنين لتقليص الاعتماد على العمالة الأجنبية.

ج. في دول الخليج العربي النفطية (الكويت، البحرين، قطر)، يُلاحظ وجود عدد أكبر من الرجال في الهرم السكاني نتيجة للهجرة الإيجابية إليها بحثاً عن فرص العمل. وتُشكل الفئة العمرية من 20 إلى 50 عاماً قاعدة الهرم السكاني، بينما تُشكل النساء قاعدة الهرم السكاني، وذلك بسبب ارتفاع معدلات المواليد (نتيجة للتقاليد، والإسلام). ومع ذلك، يتميز الهرم السكاني في دول الخليج العربي باتساعه النسبي مقارنةً بدول الشرق الأوسط الإسلامية الأخرى، وبالتالي انخفاض معدل المواليد فيها، إذ تُعتبر هذه الدول أكثر تطوراً من الدول العربية المجاورة، وخاصةً الدول الأموية. إضافةً إلى ذلك، تُشجع حكومات هذه الدول معدلات المواليد لزيادة القوى العاملة اللازمة لتطوير البنية التحتية والاقتصاد، وللمحد من الاعتماد على العمالة الأجنبية (لتضييق الفجوة بين عدد السكان المحليين وعدد الأجانب).

نموذج تطبيقي للانفجار السكاني: مصر

التوزيع الجغرافي: يتركز نحو كامل سكان مصر في 3.5% فقط من مساحتها (حوالي 35,000 كم² من أصل مليون كم²). ولا تزيد المساحة القابلة للزراعة عن 2.5% (25,000 كم²).
الانفجار السكاني الزراعي: تقلص نصيب الفرد من الأراضي الزراعية؛ فبينما زادت المساحة المحصولية الكلية من 12 مليون دونم عام 1820 إلى 50 مليون دونم عام 1990، هبط نصيب الفرد من 5.6 دونم إلى 2.3

دونم، لأن السكان قفزوا من 2.5 مليون إلى 55 مليوناً (تضاعف السكان 26 مرة بينما المساحة المزروعة لم تزد سوى بمقدار 2.5 مرة).

تفتت الملكيات والتمدد العمراني: تفتت الأراضي بالميراث والزحف العمراني على الأراضي الزراعية، مما قلل دخل الفلاح ودفع للهجرة نحو العاصمة.

تبعات تقلص نصيب الفرد من الأرض:

أ. الفقر والهجرة إلى القاهرة، العجز الغذائي

ب. استيراد كميات ضخمة من القمح،

ت. الاستغلال المفرط للتربة مما يهدد خصوبتها.

محدودية أثر السد العالي: على الرغم من أن أسوان زادت بشكل مصطنع مساحة الأراضي الزراعية الصالحة للزراعة من خلال بناء سد زراعي (عن طريق توفير المياه للري على مدار السنة)، إلا أن هذه الزيادة كانت محدودة بسبب معدل النمو السكاني السريع الذي بلغ 4.3 مليون دونم في الفترة من 1987 إلى 1960! وقد استهلكت الزيادة في الأراضي الزراعية الناتجة عن سد أسوان وكأنها لا شيء، وأضيف 29 مليون نسمة إلى عدد سكان مصر نتيجة النمو السكاني السريع والمستمر في مصر.

الانفجار السكاني الحضري (القاهرة كمدينة أحادية - Primate City): تشهد العاصمة، وخاصة القاهرة، "انفجاراً سكانيًا حضريًا" في مصر، حتى باتت تُعرف بـ "مدينة الموتى". ويتجلى ذلك في صعوبة توفير الخدمات الحضرية الأساسية لجميع السكان، ما أدى إلى نقص حاد في فرص العمل، ونقص في المساكن، الأمر الذي أدى إلى ظهور الأحياء الفقيرة وانهيار الأنظمة العامة (حيث يعيش الناس في أكواخ وخيام في "المدينة العليا" (حيث يسكنون في مبانٍ أشبه بمقابر) أو "مدينة الموتى" (حيث يعيش الناس في مساحة 870 كيلومترًا مربعًا، وتنتشر فيها أسطح المنازل)، و"اقتصاد السوق"، و"دائرة الفقر" في المدينة. تبلغ الكثافة السكانية في القاهرة الكبرى حوالي 17,000 نسمة لكل كيلومتر مربع، وتصل في بعض أحيائها إلى 15 مليون نسمة. أسباب الانفجار السكاني في مصر:

1. العامل الطبيعي/الفيزيائي: بلد صحراوي يفرض التكسب الحتمي على شريط النيل الضيق.
2. العامل البشري: ارتفاع معدلات الإنجاب لأسباب ثقافية ودينية وتدني مكانة المرأة، رغم بعض التحسن في برامج تنظيم الأسرة منذ الثمانينيات، بالتزامن مع تراجع الوفيات.
3. الهجرة الداخلية: هجرة نحو 195,000 شخص سنوياً من الريف نحو القاهرة.

الحلول المطروحة في مصر:

1. **سياسة تنظيم النسل الحكومية:** بإجراءات مباشرة وتوعوية ودعم مالي وتطوير مكانة المرأة. تتضمن هذه السياسة تدابير مباشرة وغير مباشرة للحد من عدد الأطفال في الأسرة. سياسة حكومية لخفض معدل المواليد. ومن بين التدابير: حملات توعية لزيادة استخدام وسائل منع الحمل، والتعليم، وبرامج تنظيم الأسرة، والتنمية الاقتصادية، ودعم المرأة، والمزايا المالية. لكن المشكلة تكمن في تعارضها مع التعاليم الدينية والتقاليد الاجتماعية.
2. **إعادة التوزيع السكاني وغزو الصحراء:**

○ **مشروع الوادي الجديد: - خطة لتطوير واحات الصحراء** غرب النيل من خلال استغلال المياه الجوفية ونقل المياه عبر قنوات من النيل. كما تم استغلال فرق الارتفاع بين منخفض القطارة والبحر الأبيض المتوسط لتوليد الكهرباء من مساقط المياه. يدور الحديث حول **خطة تنمية زراعية** بهدف زيادة المساحات الزراعية وتقليص الكثافة السكانية الزراعية في القرى. هذه الخطة مكلفة وتتطلب استثمارات ضخمة، ولذلك لم تُكَلَّم بالنجاح بعد. **في منخفض الفيوم** (جنوب غرب القاهرة) **(تحقق نجاح معين حيث نُقلت المياه إلى هناك عبر قناة من النيل وعُرضت الأراضي على المزارعين بأسعار منخفضة، إلا أن استمرار النمو السكاني السريع يلقي بظلاله على هذا النجاح وبعيقه).**

تطوير حضري-تجاري-صناعي على طول قناة السويس - قناة السويس هي ممر ملاحى بحري هام. هناك مصادر تشغيل غير زراعية ترتبط بالتجارة، خدمات الموانئ وبناء السفن، صناعات نفطية ومصافي النفط، وأيضاً إمكانات سياحية. هذه الخطة مخصصة لتخفيف الاكتظاظ في المدن

الكبرى في مصر (القاهرة)، وتشمل أيضاً إعادة تأهيل وتطوير مدن القناة القائمة بهدف إعادة جذب السكان إليها بعد أن هجروها في أعقاب حرب الأيام الستة وحرب يوم الغفران.

إقامة مدن جديدة - عملت الحكومة المصرية على إنشاء مدن جديدة على مسافة 30-70 كم من القاهرة بهدف تخفيف الاكتظاظ في القاهرة. المدن التي أنشئت هي: "السادات"، "السادس من أكتوبر"، "العاشر من رمضان". فشلت هذه الخطة وأصبحت المدن الجديدة في جزء منها "مدن أشباح" وبالكاد مأهولة بالسكان لعدة أسباب: انعدام الدافع لدى السكان وخوف نفسي من الانتقال إلى مكان جديد وغير مألوف، سكان فقراء يفتقرون إلى المال لشراء شقق جديدة، وغياب المهارات الشخصية المناسبة لدى الناس للعمل في المصانع بسبب نقص التعليم .

3. **زيادة التطوير الصناعي** - بهدف رفع مستوى المعيشة - وهو أمر يقلص الولادة بصورة غير مباشرة وعلى المدى الطويل. المشكلة تكمن في وجود نسبة عالية من الأمية وغياب المهارات الشخصية المناسبة للصناعات الحديثة، مما يصعب نجاح الخطة .

4. **تشجيع الهجرة الخارجية إلى دول خارج مصر** - على سبيل المثال هجرة العمال إلى دول النفط في الخليج العربي. قد تنشأ مشكلة عندما يعود هؤلاء المهاجرون إلى مصر. في أعقاب أزمات النفط في السبعينيات وارتفاع أسعاره، تقلص تصدير النفط من الشرق الأوسط لأن الدول الغربية بدأت بالانتقال إلى مصادر طاقة بديلة. ونتيجة لذلك، تراجعت مداخيل دول الخليج، وتوقفت تنميتها، وقلّت الحاجة إلى الأيدي العاملة. لذلك، فإن جزءاً من المهاجرين الذين وفدوا سابقاً إلى المنطقة فقدوا أماكن عملهم واضطروا للعودة إلى بلدانهم الأصلية. أولئك الذين عادوا إلى مصر زادوا من نسبة البطالة فيها وقوضوا استقرارها الاقتصادي والاجتماعي .

قضايا الهجرة في الشرق الأوسط

نمى بين الهجرة الداخلية (في الشرق الأوسط بشكل أساسي من القرى إلى المدينة الكبيرة، ومن أطراف الدولة نحو النواة / المركز)، وبين الهجرة الخارجية (الانتقال من دولة إلى دولة). (الهجرة الطوعية (الإرادية) - ينتقل الأشخاص من مكان إلى آخر برغبتهم وبمبادرتهم الشخصية. عادةً انطلاقاً من الرغبة في تحسين مستوى المعيشة والوضع الاقتصادي، أو الهجرة لأغراض العمل والدراسة. الهجرة القسرية / الإجبارية - تحدث غالباً بسبب الحروب، الملاحقات الدينية / السياسية، الكوارث الطبيعية كالجفاف المستمر، أو طرد السكان - كل هذه عوامل مجبرة. الهجرة الإيجابية - عدد القادمين إلى منطقة معينة أكبر ممن يغادرونها - زيادة سكانية. الهجرة السلبية - عدد المغادرين لمكان معين أكبر ممن ينضمون إليه - عدد السكان في ذلك المكان يقل .

عوامل الطرد - "أسباب مغادرة مكان معين، وهي الأمور "السيئة" في المكان الذي يُغادرونه". **عوامل الجذب** - أسباب الوصول إلى مكان جديد، وهي الأمور "الجيدة" في المكان الجديد.

الهجرة الداخلية:

من الأطراف نحو النواة، من القرى إلى المدينة المركزية (إلى مدن العاصمة): على سبيل المثال في مصر إلى القاهرة، وفي العراق إلى بغداد، وفي الأردن إلى عمان . عوامل الطرد في القرى:

1. تقلص مساحة الأرض الزراعية للفرد. فالأراضي الزراعية الصغيرة لا تكفي لتوفير الرزق. توسيع المساحة الزراعية في القرى مكلف أو غير ممكن (على سبيل المثال في مصر بسبب وجود الصحراء على جانبي النيل).
2. الفقر وتدني مستوى المعيشة.
3. تدني مستوى الخدمات، نقص في خدمات التعليم والصحة، انعدام النظافة الصحية، والأمراض .

عوامل الجذب في المدينة -مستوى خدمات أعلى، فرص عمل متنوعة، ودخل أعلى .

النتائج:

1. تسارع عملية التوسع الحضري (التمدن) -ازدياد نسبة السكان في الحضر، وتكوّن تدرج حضري غير متوازن - نشوء "المدينة المهيمنة (المدينة الرئيسية)".
2. الانفجار السكاني في المدينة -نقص في المساكن (ظواهر مثل "مدينة الموتى" و"المدينة العلوية" في القاهرة)، أحياء فقراء ("غيجكوندي" في أنقرة بتركيا - دون تخطيط حضري ومبانٍ أُقيمت بين عشية وضحاها وبلا خدمات بنية تحتية)، نقص في أماكن العمل، فقر وجريمة، "اقتصاد البازار"، صعوبة في توفير الخدمات الحضرية الأساسية مثل التعليم، الصحة، الكهرباء، الصرف الصحي والمياه النظيفة - انهيار المنظومات .
3. اتساع الفجوة الاجتماعية-الاقتصادية بين المدن وبين القرى .

محاولات حكومية لإعادة التوزيع السكاني:

محاولات الحكومات للمبادرة وتشجيع الهجرة الداخلية نحو مناطق تطوير جديدة ضمن سياسة تشتيت السكان —هدفت هذه الهجرة إلى تقليص الاكتظاظ الشديد في مناطق معينة .أمثلة :

أ. في إسرائيل —تطوير النقب والجليل —توجيه القادمين الجدد نحو مدن التطوير، ومشروع الناقل القطري إلى النقب .

ب. في مصر —تطوير مدن قناة السويس (بورسعيد، السويس، الإسماعيلية) وشمال سيناء، إقامة مدن جديدة على بعد 30 — 70 كم من القاهرة ("السادات"، "رمضان"، "السادس من أكتوبر")، تطوير واحات الصحراء غرب النيل (مشروع "الوادي الجديد") وخطة لنقل المياه من النيل عبر قناة توشكى .

ج. في سوريا —تطوير وادي نهر الفرات في شمال شرق البلاد بواسطة إقامة سد الطبقة —توسيع المساحات الزراعية المروية، وتطوير صناعي بفضل الكهرباء الرخيصة والوفرة المولدة من السد .

د. في تركيا —مشروع غاب (GAP) (مشروع جنوب شرق الأناضول) — بناء سدود على نهر الفرات (سد كيان، سد كركايا، وسد أتاتورك) لتوليد الكهرباء وتطوير الصناعة والاقتصاد في جنوب شرق تركيا، ورفع مستوى المعيشة وتنمية السكان الأكراد في المنطقة اجتماعياً واقتصادياً لتقليص تمردهم وعدائهم، وتطوير زراعي لزيادة كميات القمح). أتاتورك، مؤسس تركيا الحديثة، نقل العاصمة من إسطنبول إلى أنقرة في وسط البلاد من أجل استيطان وسط تركيا الذي كان قليل السكان ولتخفيف الضغط السكاني عن إسطنبول.

على الرغم من المحاولات المذكورة لدول الشرق الأوسط، فإن المحاولات في معظم الحالات تفشل وما زال غالبية السكان يفضلون النواة والمدن المركزية والكبرى، ولا ينجذبون إلى مناطق التطوير الجديدة!!

الهجرة الخارجية:

1. هجرة الأكاديميين (المثقفين) والمهنيين الذين يهاجرون من الشرق الأوسط إلى دول الغرب (إلى أوروبا والولايات المتحدة). هم عادة لا يعودون إلى أوطانهم. الضرر اللاحق بدول المنشأ (التي يهاجرون منها) " - هجرة الأدمغة " - يدور الحديث عن أشخاص استثمرت دولتهم في تعليمهم وتأهيلهم، وحين يهاجرون من الدولة إلى أوروبا، تخسر الدولة حينها الاستثمار الذي وظفته فيهم وتفقد مساهمتهم. في دول المقصد التي يهاجرون إليها، قد تتطور كراهية الأجانب (في ألمانيا كراهية المهاجرين الأتراك، وفي فرنسا كراهية المهاجرين الجزائريين) ومشاكل توتر اجتماعي .
2. هجرة جماعية لمهنيين وعمال من سوريا، لبنان، مصر، اليمن، تركيا والسودان إلى دول النفط في الخليج العربي 4 -ملايين مصري يعيشون في دول الخليج وليبيا. يرسل هؤلاء العمال رواتبهم إلى عائلاتهم التي بقيت في البلدان التي تركوها. السلبيات بالنسبة لدول المنشأ - هذه الهجرة تُفرغ دول المنشأ من المهنيين وتترك وراءها عائلات أحادية الوالدين. السلبيات في دول المقصد -يشكل المهاجرون بؤرة لاهتزازات اجتماعية، وزيادة ملحوظة في نسبة الغرباء من بين مجمل سكان الدولة، ومن هنا فرض قيود على الغرباء (حرمان من المواطنة وسلب الحقوق الاقتصادية والسياسية، وحظر امتلاك العقارات، وانعدام الأحقية في خدمات الرفاه) .
3. هجرة طوعية لعمال بالأيدي (أصحاب المهن اليدوية) من دول فقيرة تعاني من البطالة إلى دول تحتاج إلى عمال يدويين -على سبيل المثال هجرة ملايين الأتراك إلى ألمانيا. جزء من المهاجرين يعودون بعد فترة معينة إلى وطنهم. الإيجابية بالنسبة لدول المنشأ -المهاجرون يرسلون الأموال إلى الوطن، والمهاجرون الذين يعودون إلى وطنهم يرجعون مع رأس مال، ومعرفة ومهارات اكتسبوها في الدول المتقدمة ويمكنهم الإسهام في بلدهم. مشكلة في دول المنشأ -خلق توتر وغيره بين الجيران الذين تحسّن وضعهم بفضل الهجرة والعودة وبين أولئك الذين لم يهاجروا وبقي وضعهم الاقتصادي سيئاً. الضرر في دول المقصد -كراهية الأجانب؛ فالعمال الغرباء يستحوذون على وظائف السكان المحليين ويزيدون من نسبة بطالة المحليين (إلا أن المهاجرين في الدول المتقدمة يعملون عموماً في أعمال يدوية "شاقة/متدنية" لا يرضى المحليون بالعمل بها - نظافة، بناء، أعمال البنية التحتية، وما إلى ذلك).

أمثلة على الهجرة القسرية (الإجبارية):

1. في أوائل القرن العشرين، طُرد 1.5 مليون يوناني مسيحي من تركيا، وفي المقابل استقبلت تركيا نصف مليون مسلم من اليونان .
2. غادر العديد من الأرمن تركيا خلال الحرب العالمية الأولى، مجزرة الأرمن .
3. لجوء/فرار العديد من الفلسطينيين من إسرائيل إلى الأردن بعد حرب الاستقلال (النكبة) وحرب الأيام الستة .
4. الأكراد هم شعب ليس له دولة مستقلة وهم موزعون بين تركيا، إيران، العراق وسوريا. يتعرض الأكراد للملاحقة والاضطهاد، ولذلك ينتقلون من بلد إلى آخر .
5. فرار ومغادرة نحو 2 مليون مواطن مسيحي من لبنان في أعقاب الحرب الأهلية عام 1975 وازدياد الأعمال الإرهابية وانعدام الاستقرار السياسي، الإرهاب والحرب مع إسرائيل عام 1982 (حرب لبنان الأولى) .
6. الجفاف المستمر وعمليات التصحر يمكن أن تؤدي أيضاً إلى هجرة قسرية - على سبيل المثال من السودان وإثيوبيا (يشمل ذلك الحروب الأهلية والنزاعات القبلية).

التوزيع الجغرافي للسكان في الشرق الأوسط

توزيع السكان في الشرق الأوسط ليس متجانساً وغير متكافئ - هناك مناطق مكتظة جداً وتضم أعداداً كبيرة من السكان، وبجوارها توجد مناطق مقفرة . في مصر توجد كثافة سكانية شريطية (خطية) على طول النيل، وعلى جانبي النيل صحراء مقفرة.

مناطق كثيفة السكان:

1. على طول نهر النيل في مصر وفي دلتا النيل " -شريان حياة" في قلب الصحراء - ماء وأراضٍ زراعية، القاهرة كمدينة مهيمنة (رئيسية) كبيرة ومركزية .
2. هل بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) في العراق -منطقة سهلية، تربة طميية خصبة، مياه من الأنهار، سكان زراعيون، العاصمة العراقية بغداد كمدينة مهيمنة رئيسية وملتقى طرق .
3. السهل الساحلي للبحر الأبيض المتوسط -منطقة سهلية، مناخ مريح مع أمطار شتوية، تربة طميية جرفتها الجبال، تجارة، سياحة، وموانئ بحرية .
4. سواحل الخليج العربي -الاقتصاد النفطي، وتحلية المياه .

مناطق قليلة السكان أو مقفرة (شبه خالية من السكان):

1. سلاسل الجبال (زاغروس، ألبرز، طوروس، عسير) - بسبب الارتفاع، صعوبة الوصول، مناخ غير مريح، وصعوبة البناء، المواصلات والزراعة .
2. المناطق الصحراوية في مصر وشبه الجزيرة العربية (النفود الكبير، الربع الخالي، صحراء الدهناء، صحراء النفوذ/الدهناء) - نقص في المياه، وتربة غير خصبة .

في الشرق الأوسط يمكن تحديد نمط "بقعي" (رقع متناثرة) في التوزيع السكاني -أي تركز السكان بكثافة عالية في عدد محدود فقط من المناطق التي تتيح ظروف معيشية (مياه، طمي الأنهار، ثروات طبيعية، عاصمة، إلخ) . هذه "البقع" تشمل منطقة بلاد ما بين النهرين (دلتا الفرات ودجلة) في العراق، شواطئ البحر الأبيض المتوسط، نهر النيل وسواحل الخليج العربي . ربط كل هذه "البقع" معاً يشكل ما يشبه حلقة استيطان تحيط بمنطقة صحراوية في الوسط . هذه الحلقة الاستيطانية تتطابق مع منطقة الهلال الخصيب.

العوامل المؤثرة على توزيع السكان في الشرق الأوسط:

1. الماء - الأنهار وواحات الصحراء في المناطق الصحراوية -المياه هي "شريان الحياة" .استيطان بشري واسع على طول أنهار النيل، الفرات ودجلة .في واحات الصحراء في مصر (الغرافة، الداخلة، الخارجة، البحرية) وكذلك في واحات الصحراء في السعودية (منطقة الرياض) وإيران (أصفهان وشيراز) يوجد استيطان كبير ومكثف .في الواحات الصحراوية هناك نبع مياه جوفية .وبما أن الأساس الاقتصادي لغالبية سكان الشرق الأوسط لا يزال زراعياً، فإن هناك تفضيلاً للاستيطان بالقرب من وديان الأنهار الكبرى، التي توفر المياه وتربة طميية خصبة ومُسمدة طبيعياً .
2. مناخات رطبة ومريحة -مناطق مناخ البحر الأبيض المتوسط، المناخ البونتي والمناخ الموسمي - يسود في هذه الأقاليم المناخية هطول كميات كافية من الأمطار تتيح ممارسة الزراعة البعلية في الشتاء (أو في الصيف في المناخ الموسمي) .
3. على طول شواطئ البحر الأبيض المتوسط وسواحل الخليج العربي وبحر إيجة -مناطق سهلية ملائمة للاستيطان والبناء، واستغلال الخجان الطبيعية لإقامة موانئ بحرية وتطوير السياحة .

فروق طبيعية واقتصادية بين سواحل البحر الأبيض المتوسط (سواحل بلاد الشام) وبين سواحل الخليج العربي:

- السهل الساحلي للخليج العربي أوسع مع رصيف قاري أعرض .أما السهل الساحلي للبحر الأبيض المتوسط فهو أضيق وينقطع في بعض أجزائه بواسطة سلاسل جبلية تصل حتى خط الشاطئ .في سواحل البحر الأبيض المتوسط توجد خلجان أكثر .

- في سواحل البحر الأبيض المتوسط المناخ أبرد وأكثر مطراً. أما في سواحل الخليج العربي فالمناخ صحراوي .
- لسواحل الخليج العربي أهمية سياسية-اقتصادية أكبر بكثير نظراً لوفرة النفط فيها. وفي حين ارتفعت أهمية سواحل الخليج العربي بعد اكتشاف النفط، تراجعت أهمية سواحل البحر الأبيض المتوسط .
- في سواحل البحر الأبيض المتوسط يمكن ممارسة الزراعة من خلال استغلال التربة الطميية ومياه الأمطار (زراعة بعلية في الشتاء). أما في سواحل الخليج العربي فلا توجد ممارسة للزراعة بسبب ارتفاع ملوحة التربة والصحراء .
- 4. **على طول محاور المواصلات** -تركز السكان على طول طرق مواصلات تاريخية مثل "طريق الملوك"، "طريق البحر"، و"طريق الحرير". استوطن السكان على طول قناة السويس في مصر - مدن الموانئ (بورسعيد والإسماعيلية) .
- 5. مراكز دينية وسلطوية تشمل مدن العواصم - أماكن مقدسة مثل مكة والمدينة في غرب السعودية، النجف و كربلاء المقدستان لدى الشيعة في العراق. أصبحت مدن العواصم "مداً مهيمنة (رئيسية)" تجذب إليها سكاناً كثيراً بسبب مستوى الخدمات الأعلى وتنوع فرص العمل.
- 6. مراكز اقتصادية جديدة مع التركيز على مناطق النفط - نمو تجمعات سكانية على شواطئ الخليج العربي في أعقاب اكتشاف النفط والمداخل الطائلة منه، والتي استثمرت في تطوير البنى التحتية (أبو ظبي، دبي، الظهران، مدينة الكويت). فالنفط الوفير يوفر فرص عمل.

التنوع والتباين الإثني، الديني، واللغوي

الشرق الأوسط ملئ بثلاث قارات ويضم فسيفساء معقدة:

يسود في الشرق الأوسط تنوع (تباين) إثني-ديني-لغوي، نظراً لكونه "جسراً بين ثلاث قارات". على مر التاريخ، عبرت الشرق الأوسط مجموعات إثنية عديدة وشعوب مختلفة استقروا فيه. يُعتبر التنوع الإثني-الديني-اللغوي نقطة ضعف لكونه مصدراً للنزاعات والتوترات .

عاش أبناء العرق السامي (العرب واليهود) وكذلك الأكراد في الشرق الأوسط منذ آلاف السنين. خلال الحملات الصليبية قبل 900 عام، توغل في الشرق الأوسط فرنسيون، بريطانيون وألمان. ومع غزو نابليون لمصر في أواخر القرن الثامن عشر، عاد الأوروبيون إلى الشرق الأوسط. بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، تقاسمت بريطانيا وفرنسا السيطرة على الشرق الأوسط (الانتداب الفرنسي والبريطاني). ومن إفريقيا وصلت إلى الشرق الأوسط مجموعات من أصحاب البشرة السوداء، ومن شرق آسيا قدمت قبائل مغولية وتركية. ومع اكتشاف النفط في الخليج العربي، وبخاصة قبل 30 عاماً، هاجر إلى الخليج العربي عمال من كوريا، باكستان والهند الواقعة في آسيا. ظاهرة العمال الأجانب من آسيا وإفريقيا منتشرة أيضاً في إسرائيل .

اللغات الشائعة في الشرق الأوسط تتطابق مع الأصل الإثني - بالأساس العربية. الخط العربي يُستخدم أيضاً لدى الإيرانيين، على الرغم من أن لغتهم هي الفارسية. في السابق، كان الأتراك يستخدمون أيضاً الخط العربي، إلى أن قام أتاتورك (مؤسس تركيا الحديثة) باستبدال الخط العربي بالخط اللاتيني. اليهود يتحدثون العبرية، والأكراد يتحدثون الكردية .

الانقسامات الدينية -اليهودية هي الدين الوحيد الذي ظل كتلة واحدة إلى حد ما، على الرغم من انفصال مجموعتين صغيرتين (السامريون، والقرّاؤون). وعلى غرار المسيحية، حدثت انقسامات كثيرة - إذ توجد في الشرق الأوسط كنائس عديدة ومتنوعة: كاثوليكية، أرثوذكسية، بروتستانتية، ومارونية. في عام 661م وقع انقسام في الإسلام إلى سنة وشيعة . ومن الشيعة انفصلت عدة طوائف - الزيدية، الإسماعيلية، والعلويون. ومن الإسماعيلية انشق الدروز. وأنشأت طائفة أخرى انشقت عن الإسلام الديانة البهائية (تعرض البهائيون للملاحقة في إيران وفروا إلى إسرائيل، والموقعان المقدسان لديهم يقعان في حيفا وعكا). وفي المناطق الجبلية، وجد ملاذاً مجموعات إثنية-دينية تعرضت للاضطهاد (مثل الدروز). خلال فترة الإمبراطورية العثمانية، لم تكن هناك نزاعات على خلفية إثنية-دينية، لأن الحكم التركي (السلطان) لم يمنح امتيازات إضافية لأي مجموعة من المجموعات المختلفة. أما القوى الغربية (بريطانيا وفرنسا) التي احتلت الشرق الأوسط من الأتراك، فقد حددت حدود دول الشرق الأوسط دون مراعاة التقسيم الديني-الإثني-اللغوي المعقد للشرق الأوسط !

في جميع دول الشرق الأوسط تقريباً، السكان غير متجانسين من الناحية الإثنية-اللغوية أو الدينية. هذا الوضع يشكل مصدراً للنزاعات والتوترات. على سبيل المثال :

- لبنان -انقسام عميق أضّر بالدولة بشدة .

- الأكراد -شعب (24 مليوناً) بلا دولة مستقلة، مقسمون بين تركيا، العراق، إيران وسوريا. صراع بين الأكراد وبين السلطة التركية (حركة سرية كردية تنفذ عمليات). في العراق، قمع صدام حسين محاولات التمرد بالقوة بما في ذلك استخدام الأسلحة الكيميائية .
- سوريا -توتر مستمر وصل في الماضي إلى إراقة الدماء أيضاً بين الأقلية العلوية (ذات الأصل الشيعي) الحاكمة في الدولة، وبين الدروز والأغلبية السنية. يركز هذا الحكم للأقلية العلوية في سوريا على قوة هائلة وليس على أساليب ديمقراطية .
- السودان -شقاق اجتماعي عميق بين الأغلبية العربية-المسلمة في الشمال وبين الأقليات في الجنوب التي تشمل مسيحيين، وثنيين، وسوداً .
- العراق -في فترة صدام حسين، سيطر حكم أقلية سنية مركزة في بغداد (استولى على السلطة بالقوة) على أغلبية شيعية في جنوب العراق. استخدام القوة والقتال وقمع محاولات تمرد الشيعة. النظام الجديد في العراق، بعد عهد صدام حسين، أصبح ذا أغلبية شيعية في أعقاب انتخابات أجريت هناك .
- اليونان وتركيا -بعد الحرب العالمية الأولى جرى تبادل سكاني واسع بين اليونان وتركيا على أساس إثني-ديني (استقبلت تركيا مسلمين، ونُقل إلى اليونان مليون ونصف مسيحي) .

إن الانقسام الإثني-الديني-اللغوي القائم في الدول المعروضة في الأمثلة أعلاه يضع في موضع شك كبير إمكانية قيام أنظمة ديمقراطية في هذه الدول في المستقبل القريب. فالنخبة، أو العائلة، أو القبيلة أو جماعة الأقلية الحاكمة في هذه الدول تفضل غالباً المصالح العائلية-القبلية الشخصية وليس الاعتبارات الرسمية العامة للدولة، خلافاً لما هو متبع في دول الغرب الحديثة.

إن الارتفاع في مستوى المعيشة والتعليم من شأنه أن يخفف من عوامل العداء والنزاع، وقد يشجع التسامح بين الأديان بصورة مشابهة لما هو قائم في الولايات المتحدة، أستراليا وغرب أوروبا .

الفصل السادس: المياه في الشرق الأوسط

إعداد: عنبال غور-دييوخ

أ. مقدمة:

الشرق الأوسط هو منطقة تعاني من نقص في المياه. مصادر المياه في المنطقة لا تلبي احتياجات السكان المحليين، والوضع يزداد تفاقمًا مع مر السنين. في معظم الدول، مشكلة المياه خطيرة جداً (على سبيل المثال: مصر)، ولكن هناك دولاً مثل تركيا لا تعاني من مشاكل مياه، غير أن هذه الدولة هي بطبيعة الحال في الأقلية. مصادر المياه المركزية في الشرق الأوسط هي: مياه الأمطار، الأنهار وبشكل رئيسي الأنهار الكبرى وهي النيل، الفرات ودجلة، ومصدر مياه إضافي هو المياه الجوفية. كما يمكن الإضافة بأن هناك دولاً يُعد مصدر المياه الهام لديها هو تحلية المياه (وهي عملية يتم فيها تحويل مياه البحر المالحة إلى مياه عذبة صالحة للشرب).

ب. العوامل المسببة لنقص المياه في الشرق الأوسط هناك عدة أسباب تؤدي إلى نقص المياه :

1. الانفجار السكاني — عدد السكان في الشرق الأوسط كبير (330 مليون نسمة)، وفي المقابل فإن الزيادة الطبيعية مرتفعة جداً (في العراق، سوريا، الأردن والسعودية تصل الزيادة الطبيعية إلى 3%) . هذه الزيادة الطبيعية المرتفعة تسببت في مضاعفة سكان الشرق الأوسط لنفسهم بين السنوات 1950 إلى 1980، والعدد على وشك أن يتضاعف مجدداً في غضون 30 عاماً .
2. ارتفاع مستوى المعيشة — يؤدي ارتفاع مستوى المعيشة إلى زيادة الاستخدام المتسع للمياه لغسل المزيد من السيارات، ري الحدائق، وما إلى ذلك . ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الارتفاع في مستوى المعيشة يكاد لا يظهر في معظم الدول، ولكنه يبرز بشكل أساسي لدى الطبقة السكانية الغنية التي تشكل أقلية في غالبية الدول .
3. المناخ — معظم منطقة الشرق الأوسط هي منطقة صحراوية، وبالتالي فإن كمية الرواسب (الأمطار) منخفضة .
4. التلوث — في الشرق الأوسط هناك عدة مصادر تلوث المياه الجوفية ومياه الأنهار (مياه الصرف الصحي، مخلفات المصانع)، وهذا التلوث يمنع السكان من استخدام المياه للشرب وأيضاً لري الحقول الزراعية .
5. الحقول الزراعية — في الشرق الأوسط توجد نسبة عالية من الأشخاص الذين يعملون في الزراعة، ولذلك فهم يستهلكون كميات كبيرة من المياه .

ج. مصادر المياه الطبيعية في الشرق الأوسط

في الشرق الأوسط هناك عدة مصادر مياه طبيعية : **ملاحظة:** مياه الشرب الصالحة للاستخدام تُسمى أيضاً مياهاً عذبة (صالحة للشرب) .

1. **مياه الأمطار** — تُستخدم هذه المياه بشكل أساسي للزراعة — **البعلية** (الزراعة البعلية هي مصطلح يشير إلى مزارع يستخدم مياه الأمطار . وفي حالة استخدام الري الاصطناعي، يُقصد بذلك الزراعة المروية) .
2. **مياه الأنهار** — مياه الأنهار هي أهم مصدر للمياه في الشرق الأوسط . تبدأ الأنهار بالجريان من مراكز الجبال مثل: جبال أرمينيا الواقعة في تركيا ومنها يبدأ جريان نهري الفرات ودجلة، جبال زاغروس الواقعة في منطقة إيران حيث تبدأ روافد (جدول أو نهر صغير) لنهر دجلة بالجريان منها، جبال لبنان، وكذلك جبال إتيوبيا التي تشكل منابع النيل الأزرق (يتكون نهر النيل من نهري: النيل الأزرق الذي يبدأ في إثيوبيا، والنيل الأبيض الذي يبدأ بالجريان من بحيرة فيكتوريا الواقعة في وسط إفريقيا في منطقة خط الاستواء) .
3. **المياه الجوفية** — توجد هذه المياه تحت سطح الأرض داخل طبقة صخرية تُسمى الخزان الجوفي (الأكويفر) . في الشرق الأوسط يوجد عدد من الخزانات الجوفية وهي تشكل مصدر مياه بالغ الأهمية . هناك دول تشكل فيها المياه الجوفية غالبية المياه العذبة في تلك الدولة، والدولتان البارزتان هما: إسرائيل والأردن.

د. أحواض تصريف دولية (مشاركة بين الدول)

حوض التصريف هو منطقة تتدفق جميع المياه التي تصل إليها نحو نهر رئيسي وكبير واحد . في الشرق الأوسط هناك عدة أحواض تصريف هامة، أي توجد في الشرق الأوسط عدة أنهار كبرى تصل إليها المياه من أماكن مختلفة :

حوض تصريف نهر النيل — النيل هو أطول نهر في العالم (6695 كم) . (وهو يتكوّن من نهري رئيسيين هما النيل الأبيض والنيل الأزرق، وبالإضافة إلى ذلك تتدفق إليه أنهار وروافد إضافية أصغر حجماً) .

- يبدأ النيل الأبيض بالجريان من بحيرة فيكتوريا الواقعة في وسط إفريقيا، وكمية المياه المتدفقة فيه ثابتة.

- يبدأ النيل الأزرق بالجريان من بحيرة تانا الواقعة في جبال إثيوبيا، وكمية المياه المتدفقة في هذا النهر غير ثابتة، وذلك لأن أمطار المونسون (الرياح الموسمية) تهطل في تلك المنطقة خلال فصل الصيف مسببةً تدفقاً أقوى للمياه في النهر (المونسون هو مسمى للأمطار التي تهطل بغزارة في أشهر الصيف). يلتقي هذان النهران، أي النيل الأبيض والنيل الأزرق، في منطقة مدينة الخرطوم (عاصمة السودان) ويشكلان معاً النيل الموحد الذي يستقبل بعد بضع عشرات من الكيلومترات نهر عطبرة، ومن تلك المنطقة يتدفق النيل على امتداد 2500 كم دون أن يتلقى أي مصدر مياه إضافي إلا إذا هطلت أمطار في المنطقة. يتدفق في النيل كل عام كمية مياه تبلغ 84 مليار متر مكعب، حيث تأتي غالبية هذه الكمية من النيل الأزرق (64%)، ويضيف نهر عطبرة نحو 13% (بمجموع 77%)، وتصل كمية المياه المذكورة بشكل رئيسي في أشهر الصيف بسبب أمطار المونسون التي تهطل في إثيوبيا. في هذه الفترة، يواصل النيل تدفقه باتجاه مصر، وبسبب وصول غالبية المياه إلى هناك في أشهر الصيف، كانت تحدث كل عام فيضانات تغمر المساحات الزراعية. ولم يكن بمقدور مصر أن تسمح لنفسها بغرق الحقول الزراعية، ولهذا السبب أقاموا سد أسوان بهدف التحكم في تدفق المياه على مدار العام. تم تدشين السد في عام 1970، مع الإشارة إلى أنه في أوائل القرن العشرين كان البريطانيون قد بنوا سداً بالفعل، ولكنه لم يكن فعالاً بالشكل المطلوب ولذلك بُني سد جديد. وخلف السد الذي تم بناؤه تشكلت بحيرة ضخمة تسمى "بحيرة ناصر"، وتقع هذه البحيرة في مصر وأيضاً في السودان.

لبناء السد كانت هناك نتائج إيجابية وسلبية:

نتائج إيجابية

1. توسيع الحقول الزراعية وزيادة إنتاج الغذاء. استطاعوا فعل ذلك لأن السد أتاح التحكم بكميات المياه المراد استخدامها.
2. تزويد منتظم بالمياه على مدار العام – هذه النتيجة مهمة جداً لأن هناك سنوات يسود فيها الجفاف والتحكم بالسد يسهل التعامل مع هذا الوضع.
3. وقف الفيضانات في مصر – أدى هذا الأمر إلى زيادة القدرة على زراعة الأرض على مدار السنة وليس وفقاً لمواسم الفيضانات كما كان في السابق.
4. من خلال السد يمكن توليد الكهرباء (طاقة كهرومائية).
5. أدى السد إلى وجود نشاط سياحي في منطقة البحيرة، ونتيجة إضافية هي مصدر رزق لعمال كثيرين مثل: صيادي الأسماك والعاملين في قطاع السياحة.

نتائج سلبية

طمي أقل – في نهر النيل كميات كبيرة من الطمي التي كانت تصل في الماضي إلى الحقول الزراعية بفعل الفيضانات وتزيد من خصوبة التربة. أدى بناء السد إلى ترسب معظم الطمي في البحيرة، ولذلك اضطر العديد من المزارعين في مصر إلى استخدام الأسمدة الكيماوية التي تسبب تلوثاً، وخاصة للمياه الجوفية. بالإضافة إلى مشكلة التلوث، يمكن الإشارة إلى أن المزارعين أصبحوا بحاجة إلى شراء الأسمدة وإنفاق مبالغ مالية لتسميد الأرض بعد أن كانوا في الماضي في غنى عن ذلك. علاوة على ذلك، كان الطمي يشكل مصدراً لغذاء أسماك البحر الأبيض المتوسط، وبمجرد توقفه عن الوصول تضرر فرع صيد الأسماك.

مياه راكدة في البحيرة –المياه الموجودة في البحيرة لا تجري، ولذلك يمكن أن تحدث في البحيرة ظواهر سلبية مختلفة مثل: تطور طفيليات مثل طفيل البلهارسيا (الذبابية). كما يحدث في البحيرة تبخر هائل وتسرب للمياه، وتفقد مصر كل عام نتيجة لذلك نحو 12 مليار متر مكعب (كمية مياه تفوق استهلاك دولة إسرائيل بأكملها بـ 6 أضعاف) .

بالإضافة إلى ذلك، تعاني مصر من ثلاث مشاكل إضافية مرتبطة بالمياه وهي:

1. **منطقة الدلتا** -تقع هذه المنطقة في شمال مصر وتتركز فيها أعداد كبيرة من السكان، كما يوجد فيها تركيز الحقول الزراعية في مصر . ونتيجة لبناء السد وترسب الطمي خلفه، هناك انخفاض ملحوظ في كمية المعادن، مما يؤدي إلى تراجع الإنتاج الزراعي .
2. **الاحتباس الحراري** -يؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر، مما يسبب غمر منطقة الدلتا بالمياه (إذ تقع الدلتا عند مستوى سطح البحر) . والنتيجة هي تغلغل مياه البحر إلى الدلتا والتسبب في تملح المياه الجوفية في شمال الدلتا .
3. **مشاكل سياسية** -إثيوبيا والسودان جارتان لمصر، وتعاني هاتان الدولتان من مشاكل صعبة في الجانب الاقتصادي والسياسي [إثيوبيا دولة فقيرة جداً! والسودان يشهد حرباً أهلية بين الشمال المسلم والجنوب المسيحي] . هذه القضية من شأنها أن تؤدي إلى الإضرار بالمياه لأن السودان يلوث مصادر مياه النيل إلى جانب استخدام هذا المصدر المائي لسكانه . كما تطالب إثيوبيا أيضاً باستغلال مياه النيل لاحتياجاتها . وهذا الأمر قد يشكل مشكلة حادة لمصر، لكونها تقع في مصب (نهاية مسار) النهر .

2.الفرات ودجلة –نهر الفرات الذي يبلغ طوله 2,300 كم يبدأ بالجريان في تركيا في منطقة جبال أرمنيا ومن هناك يتدفق عبر سوريا ويستمر إلى العراق حيث يلتقي بنهر دجلة . نهر دجلة الذي يبلغ طوله 1,850 كم يبدأ في جبال أرمنيا بتركيا ومن هناك يتدفق إلى العراق، حيث تصب فيه داخل هذه الدولة روافد إضافية مثل: الزاب الكبير، الزاب الصغير ونهر ديالى . ويواصل الجريان ويقطع مدينة بغداد ومن هناك يستمر في التدفق حتى يلتقي قرب مدينة البصرة بنهر الفرات ويشكلان معاً نهر شط العرب الذي يصب في الخليج العربي .

تتدفق في هذين النهرين سنوياً كمية مياه تبلغ 80 مليار متر مكعب (مليار م³) . نظام الجريان في كلا النهرين غير مستقر؛ أي أن التدفق شحيح في الصيف، وفي الشتاء يكون التدفق أكبر وذلك بسبب الأمطار الكثيرة التي تهطل في تركيا (وتسمى هذه الفترة بـ "الفيضان الصغير")، وفي الربيع يكون الجريان في ذروته وذلك بفعل ذوبان الثلوج في جبال أرمنيا (وتسمى هذه الفترة بـ "الفيضان الكبير") .

في البلدان التي تتدفق فيها هذه الأنهار، تحاول هذه الدول استغلال مياه الأنهار .

• كل دولة من هذه الدول قامت بنشاط مختلف:

- **تركيا** –تريد تركيا تطوير جزئها الشرقي الذي يعتبر المنطقة الأكثر تخبلاً في البلاد . هذه المنطقة غنية بالمياه، وبالتالي يمكن تطوير مساحات زراعية واسعة هناك، وبالإضافة إلى ذلك يمكن إقامة سد على النهر لتوليد طاقة كهرومائية . علاوة على ذلك، ترغب تركيا في تطوير المنطقة نظراً لوجود سكان أكراد يعيشون فيها ويشعر هؤلاء السكان بأن الحكومة التركية تهملهم وتميز ضدهم . لهذه الأسباب، قاموا في منطقة شرق تركيا ببناء عدد من السدود مثل: سد كيبان، سد كركايا، وسد أتاتورك الذي يُعد واحداً من أكبر السدود في العالم .
- **سوريا** –تريد سوريا أيضاً استغلال أكبر قدر ممكن من المياه المتدفقة داخل أراضيها، ولذلك

قاموا بإنشاء سد الطبقة، وخلفه تشكلت بحيرة (بحيرة الأسد) مخصصة لتطوير مساحات زراعية واسعة . بالإضافة إلى ذلك، يتم توليد الكهرباء من سد الطبقة .

- **العراق** - في العراق أيضاً قاموا ببناء سدود مختلفة على نهر الفرات وعلى نهر دجلة مثل: سد الموصل وسد سامراء .

ملاحظة: تجدر الإشارة إلى أنه في أعقاب بناء السدود اندلعت نزاعات وخلافات عديدة بين الدول؛ حيث هدد العراق عام 1975 باجتياح سوريا، وفي عام 1990 هددت سوريا باجتياح تركيا. تستغل تركيا اليوم الوضع من خلال "التهديد المائي" - أي أنها تمارس ضغوطاً على سوريا لكي تتوقف عن مساعدة الأقليات التي تنشط في تركيا (الأكراد والأرمن). تُسمى هذه النزاعات التي تنشأ بين الدول بسبب قضية المياه بـ **الجيوسياسية (الجغرافيا السياسية)**. يمكن التلخيص والقول إن في الشرق الأوسط مشكلة جيوسياسية حادة تتمحور حول المياه؛ فمن جهة، الصراع بين السودان ومصر، حيث إنه في حال قلّص السودان كمية المياه في نهر النيل عن طريق ضخ المياه أو بناء سد، فسيثير ذلك غضباً شديداً لدى مصر وقد يصل بها الأمر إلى إعلان الحرب ضد السودان. ومن جهة ثانية، "التهديد المائي" القادم من جانب تركيا والذي يؤثر على سوريا والعراق.

3. **حوض تصريف نهر الأردن** - نهر الأردن هو نهر صغير نسبياً مقارنة بالأنهار الكبيرة في الشرق الأوسط . المنابع الثلاثة لهذا النهر هي: نهر دان (الأكبر بينها)، نهر الحاصباني (نهر سنير)، ونهر بانياس (نهر حرمون) . تضخ هذه الأنهار إلى نهر الأردن 550 مليون متر مكعب سنوياً، بالإضافة إلى ذلك يتلقى نهر الأردن مياهاً من جداول وأودية أخرى في الجولان وفي الجليل الأعلى. يتدفق الأردن نحو بحيرة طبريا، ومن طبريا يواصل جريانه نحو البحر الميت. جنوبي بحيرة طبريا، يستقبل نهر الأردن مياه نهر اليرموك (يضخ هذا النهر 475 مليون متر مكعب إضافية)، كما تصب فيه أودية وجداول إضافية تتدفق من اتجاه الأردن نحو إسرائيل مثل: نهر الزرقاء (وادي يابوك) وغيره .

ملاحظة: تستخدم كل من إسرائيل والأردن مياه نهر الأردن لاستخدامات مختلفة؛ إذ تضخ إسرائيل المياه من بحيرة طبريا إلى مشروع الناقل القطري، بينما ينقل الأردن المياه من نهر اليرموك إلى قناة الغور وذلك لري مساحاته الزراعية في غور الأردن .

وبناءً عليه، توجد أيضاً بين إسرائيل / الأردن / سوريا / لبنان قضايا ومشاكل جيوسياسية، وذلك لأن هذه الدول توقف بين الحين والآخر جريان بعض الأودية والجداول التي يُفترض أن تصل إلى إسرائيل. فعلى سبيل المثال - يؤدي حجز المياه في نهر اليرموك إلى تقليل تدفق المياه في نهر الأردن، وبالتالي تصل مياه أقل أيضاً إلى البحر الميت فيجف بشكل أسرع . مثال إضافي - تخطط سوريا بالتعاون مع الأردن لإقامة "سد الوحدة" على نهر اليرموك من أجل توسيع المساحات الزراعية وتوليد طاقة كهرومائية، وبذلك ستصل كمية مياه أقل إلى نهر الأردن.

هـ. الخزانات الجوفية (الأكويفرات) الدولية في الشرق الأوسط

الخزان الجوفي (الأكويفر) هو عملياً صخرة ضخمة تحت الأرض تُخزن فيها مياه تسمى بالمياه الجوفية . هذه المياه مهمة لكل دولة وخاصة للدول ذات المناخ الصحراوي (وكما هو معلوم، فإن معظم دول الشرق الأوسط هي كذلك). توجد هذه الخزانات الجوفية في جميع أنحاء العالم وكذلك في الشرق الأوسط. في الشرق الأوسط يوجد عدد من الخزانات الجوفية الكبيرة التي يقع جزء منها في أراضي أكثر من دولة واحدة، وبالتالي تُدعى خزانات جوفية دولية .

تنقسم هذه الخزانات الجوفية إلى عدة أنواع تُحدد وفقاً لاستخدامها: في الخزانات الجوفية الدولية (على سبيل المثال، الخزان المشترك بين تركيا، سوريا والعراق) لا يوجد نزاع حالياً نظراً لأن الحديث يدور عن مناطق قليلة السكان، ولكن من الممكن في المستقبل أن ينشب صراع عليها. نوع آخر من الخزانات الجوفية هو: خزانات يوجد حولها صراع، مثل الخزان المشترك بين مصر وليبيا، حيث ترغب كل واحدة من هذه الدول في استغلال أكبر قدر ممكن من مياه الخزان. بالإضافة إلى ذلك، توجد خزانات جوفية وُقع بشأنها اتفاق بين الدول، مثل الخزان الموجود في وادي عربة بين إسرائيل والأردن، والذي يسري عليه اتفاق دولي.

و. مصادر مياه إضافية

في الشرق الأوسط هناك عدة مصادر مياه إضافية :

1. **تحلية المياه** — تحلية المياه هي عملية يتم فيها تحويل مياه البحر إلى مياه عذبة (صالحة للشرب) .في الشرق الأوسط هناك عدة دول تقوم بتحلية المياه، والدولتان الأبرز هما: السعودية والكويت .والسبب في ذلك هو أن هذه الدول غنية، وبالتالي تتوفر لديها القدرة على تحلية المياه .
2. **استيراد المياه** — إمكانية أخرى لمعالجة مشكلة المياه في الشرق الأوسط بكفاءة هي شراء المياه من دول غنية بالمياه، مثل تركيا ودولة أخرى هي الفلبين .يتم التخطيط لنقل المياه عبر ناقلات نفط يتم تحويلها (تعديلها) لتصبح صهاريج مياه .
3. **المطر الاصطناعي** — هذه طريقة لزيادة كمية الأمطار من خلال عملية خاصة تُسمى "استمطار السحب" (بذر الغيوم) . العملية — تقوم طائرات برش مادة داخل السحابة تُسمى "يوديد الفضة" (مادة كيميائية) .وتؤدي هذه المادة إلى تكاثف بخار الماء حولها حتى تتشكل قطرة مطر تسقط نحو الأرض فيما بعد .يعمل "استمطار السحب" على زيادة كمية الرواسب (ليس بالضرورة) بنحو 15 % في إسرائيل يُطَبَّق هذا الإجراء منذ أواخر الستينيات، ولكن في شمال البلاد فقط.

الفصل السابع: النفط - نعمة أم نقمة؟

إعداد: كوبي ليفي

يوجد النفط في الشرق الأوسط في حوض ترسيبي يُسمى "الحوض الإنهباطي الجيولوجي" (الجيوسينكلين)، والذي يمتد من جنوب شرقي سوريا والعراق والدول المحيطة بالخليج العربي وحتى تحت غرب عُمان؛ معظم نفط الشرق الأوسط يتركز حول الخليج العربي.

1. جغرافية شبه الجزيرة العربية

تقع في شبه الجزيرة العربية الدول التالية: السعودية، اليمن، عُمان، الإمارات العربية المتحدة، قطر، البحرين والكويت. الموقع الجغرافي لهذه الدول في شبه الجزيرة العربية أوجد بينها قواسم مشتركة كالتاريخ، الدين، الثقافة وغيرها. كانت الكويت، البحرين، قطر والإمارات مفتقرة للأهمية الديموغرافية والسياسية والاقتصادية حتى تم اكتشاف "الذهب الأسود" فيها. وعلى الرغم من التشابه الكبير بين هذه الدول، إلا أن هناك أيضاً فروقاً كثيرة مثل مساحة الدولة، حجم السكان، القوة العسكرية وغيرها.

كذلك تشترك كل من إيران، العراق، سوريا وتركيا في حقول النفط الكبرى في الخليج العربي؛ حيث تنتمي نحو نصف سواحل الخليج التي تتركز فيها حقول النفط الكبرى إلى إيران، وللعراق شريط ساحلي صغير على الخليج، ولكنه غني جداً بالنفط. كما تلامس سوريا وتركيا أطراف حوض النفط ولذلك تم اكتشاف النفط فيهما. أحدث النفط تحولات كبيرة في الدول التي يتم استخراجها فيها.

الاستيطان والاقتصاد قبل اكتشاف النفط

تطورت في المناطق الجبلية ثقافة زراعية، وذلك لأن الظروف السائدة في هذه المناطق تتيح زراعة محاصيل زراعية. وكانت سائر أرجاء شبه الجزيرة العربية مقفرة، ولم يكن ينتقل في وسطها سوى البدو الرُحَّل. وفي هذه الصحاري لم تكن

توجد سوى مدن قليلة مثل مكة والمدينة والرياض. في عام 1940 كانت شبه الجزيرة العربية مقفرة وقليلة السكان، وكان آلاف البدو الذين يرتحلون مع قطعان الماشية بحثاً عن المراعي يمارسون أيضاً زراعة التمور، دباغة الجلود، التجارة وغيرها. وكانت مدينتا مكة والمدينة مركز جذب للحجاج المسلمين على مر مئات السنين.

ينبوع النفط المتدفق

بعد اكتشاف النفط، شهدت المنطقة ثورة اقتصادية وأصبحت الأكثر ثراءً في العالم. أثر اكتشاف النفط على المكانة السياسية والاقتصادية، وأدى إلى تعزيز القوة العسكرية وتغيير أسلوب الحياة. ورغم أن الخليج العربي ليس المصدر الوحيد في العالم، إلا أنه المصدر الوحيد الذي يتمتع بثلاث خصائص مجتمعة، وهي :

1. توجد في هذا المصدر كميات هائلة من النفط .
2. سهولة استخراج النفط وانخفاض تكلفة إنتاجه .
3. تستهلك الدول المنتجة للنفط كميات ضئيلة جداً منه، ولذلك يمكنها توجيه معظم الإنتاج للتصدير .

تُشكل كمية النفط المنتجة في الشرق الأوسط نحو ثلث الإنتاج العالمي، وذلك لأن استهلاك الشرق الأوسط ضئيل جداً . وتُباع كميات الفائض مشكلةً نحو 50% من كميات النفط المتداولة تجارياً في العالم، ولذلك تبذل الدول العظمى الغنية في العالم وشركات النفط التابعة لها جهوداً كبرى لضمان السيطرة والنفوذ طويل الأمد على الشرق الأوسط، وبشكل رئيسي على حقول النفط في الخليج العربي.

تكوّن النفط

عملية تكوّن النفط ليست معروفة بشكل قاطع، ولكن وفقاً للنظرية المقبولة، يتكوّن النفط على مدار ملايين السنين من تحلل نباتات بحرية (عوالق نباتية - فيتوبلانكتون) وحيوانات بحرية مجهرية (عوالق حيوانية - زووبلانكتون) تتكاثر وتموت بوتيرة عالية جداً. بعد موتها، تغرق هذه الكائنات في قاع البحر مع جزيئات معدنية مثل الرمل والطين وحببيبات أخرى . تتراكم هذه المادة العضوية في القاع تحت ضغط ثقيل من الرواسب والمياه التي تعلوها، ودون أي ملامسة للأكسجين تحدث عمليات تعفن تؤدي إلى تكوّن النفط .

لتكوّن مكن (حقل) نفط، يلزم توافر مزيج من أربعة شروط:

1. اجتماع شروط ملائمة لتكون النفط مثل: درجة حرارة مناسبة للمياه القريبة من الشواطئ تتيح للعوالق التكاثر، بالإضافة إلى عمليات الترسيب .
2. وجود صخور مكن مسامية مثل الحجر الجيري والرمل تتيح امتصاص النفط وتخزينه لكي يتسنى استخراجه .
3. وجود صخور غطاء تعلو صخور المكن لمنع تسرب النفط نحو الأعلى، وبالتالي تحول دون طفو النفط إلى طبقات المياه العليا وتبخره عند ملامسة الغلاف الجوي؛ وصخور الغطاء الملائمة هي صخور الجبس أو حجر جيري كثيف غير منفذ .
4. بنية تحت أرضية محدبة (طية محدبة) تشكل مصيدة نفطية؛ فحين لا تتوفر بنية كهذه، قد يخرج النفط نحو الجوانب ونحو الأعلى رغم وجود صخور الغطاء. يُحتجز النفط ويتجمع في قمة الطية المحدبة، حيث تعلوه طبقة من الغاز وتستقر تحته المياه. بالإضافة إلى بنية الطية المحدبة، توجد أيضاً قباب ملحية تُشكل هي الأخرى ظروفاً ملائمة لاحتجاز النفط (توجد تراكيب أخرى غير مفصلة هنا).

استكشاف وتحديد أماكن النفط

في المرحلة الأولى، يجب تحديد أماكن الصخور والتراكيب تحت أرضية المناسبة لاحتجاز النفط ومنع هروبه وتبخره؛ ولتحقيق ذلك يستعينون بعدة طرق :

- **صور الأقمار الصناعية:** للتعرف على التغيرات في لون سطح الأرض أو في المكاشف الصخرية التي تدل على تسرب نفط أو غاز نحو السطح .
- **طرق جيوكيميائية وجيوفيزيائية:** طرق لتحليل الخصائص المتنوعة للصخور والتراكيب الجيولوجية لاكتشاف صخور وتراكيب تحتفظ بالنفط . والمقصود هنا طرق كيميائية، مغناطيسية، كهربائية وسيزمية (باستخدام الموجات الصوتية) وجاذبية (مرتبطة بقوة الجاذبية) .
- **طرق جيولوجية:** إجراء عمليات حفر استكشافية في الأماكن "المشتبه بها" للعثور على حقل النفط وتحديد خريطته من حيث عمقه، حجمه وحدوده .

الظروف الملائمة لتكوّن النفط في الشرق الأوسط

وفقاً للدلائل التي تشير إلى أنه في الفترات الجيولوجية السحيقة وقبل انفصال القارات إلى وضعها الحالي، كانت منطقة الخليج العربي تقع تحت بحر قديم. وسادت في هذه المنطقة ظروف مثالية لتكون وتراكم النفط، مثل عمق غير كبير للمياه ومناخ دافئ شكلاً بيئة حاضنة لنمو العوالق التي تكوّن منها النفط خلال عمليات التعفن والتحلل في قاع البحر.

امتصت الصخور المسامية المتواجدة في المنطقة (مثل صخور الرواسب وصخور الحجر الرملي) النفط، كما منعت صخور الغطاء الصماء (مثل صخور المارل/الحوار والكريتاسي) هروبه. بالإضافة إلى هذه الشروط، تواجدت تراكيب طيّات بسيطة وكبيرة أوجدت مصائد نفطية.

نقل النفط في الشرق الأوسط إلى مختلف وجهاته

تعتمد عملية نقل النفط وتسويقه على عدة عوامل واعتبارات، ولا تقتصر على معيار الطريق الأقصر والأسرع؛ وهي كالتالي: شبكة خطوط الأنابيب القادمة من حقول النفط الشمالية في الشرق الأوسط لا تنتج النفط بكميات كافية، ونظراً لارتفاع حجم الاستهلاك في أمريكا الشمالية وأوروبا، يجب نقل النفط أيضاً من الحقول الجنوبية، ومن هناك يكون المسار طويلاً وأكثر تعقيداً. يمر النفط عبر خطوط أنابيب من حقول النفط الشمالية إلى مصبات النفط على شواطئ البحر الأبيض المتوسط في مناطق تركيا ولبنان وسوريا، ومن هناك عبر الناقلات البحرية، بينما يُنقل من حقول النفط الجنوبية عبر الخليج العربي في سفن تعبر قناة السويس. وتستطيع السفن الأكبر حجماً عبور قناة السويس فقط عندما تكون فارغة، ولذلك عندما تكون محملة بالكامل فإنها تدور حول قارة إفريقيا . أدت الاعتبارات والنزاعات السياسية، وتضارب المصالح، وانعدام الاستقرار في المنطقة إلى إنشاء شبكات خطوط أنابيب في مناطق شتى. وبسبب التوترات والخلافات بين الدول، تم تغيير مسارات بعض خطوط الأنابيب التي كان يمر بعضها حتى عبر إسرائيل، بل وتوجد خطوط أنابيب أصبحت معطلة وخارج الخدمة بسبب هذه التوترات الإقليمية. بالإضافة إلى مسألة نقل وتسويق نفط الخليج العربي، توجد مشكلة أخرى متعلقة بالجانب المالي والرسوم؛ إذ تدور نزاعات سياسية بين سوريا، تركيا وإيران، حيث ترغب كل دولة في أن تمر عبر أراضيها مسارات خطوط الأنابيب للاستفادة من العائدات المالية. فضلاً عن هذه الخلافات والنزاعات بين روسيا وأوروبا الغربية والولايات المتحدة، تبرز المسألة الاقتصادية؛ فكل دولة ترغب في مرور خطوط الأنابيب بأراضيها لأن الدول التي تعبر الأنابيب أراضيها تحصل على رسوم عبور (عوائد) من أرباح استخراج النفط، مما يسهم في تطوير اقتصادها ويدر أموالاً على خزينة الدولة المجاورة للدول المنتجة. كما تستفيد هذه الدول من تعبيد الطرق ومد شبكات خطوط النفط، بالإضافة إلى بناء الموانئ وإنشاء مصافي التكرير بالقرب من مصبات أنابيب النفط.

التحولات في الخليج العربي في أعقاب الثورة النفطية

في أعقاب اكتشاف النفط في الخليج العربي، تعززت المكانة السياسية للدول النفطية، وبدأت هذه الدول في مراكمة ثروات طائلة. تصدير النفط، الذي يُعد حيويًا للمجتمع الحديث، أتاح للدول النفطية التأثير على أسعار النفط في العالم في عدة أحداث :

- **في عام 1973،** بعد حرب "يوم الغفران" (حرب تشرين)، أوقفت الدول العربية تصدير النفط إلى دول العالم، مما أدى إلى ارتفاع أسعار النفط .
- **في الأعوام 1979-1981،** اندلعت أزمة نفطية في أعقاب الثورة التي اندلعت في إيران، مما أدى إلى ارتفاع أسعار النفط بنسبة تصل إلى 200 %. ونتيجة لذلك، بدأت الدول المستهلكة الرئيسية للنفط في البحث عن مصادر

نفط خارج الشرق الأوسط، وبالإضافة إلى ذلك زادت من استخدام مصادر طاقة بديلة مثل: الفحم، طاقة الرياح، الطاقة الشمسية، وطاقة المياه والطاقة النووية .

- **في الأعوام 1980-1986**، دارت حرب بين إيران والعراق، وبغية جمع أموال طائلة للتسلح "كسرت" الدول سقف حصص تصدير النفط المفروضة عليها من قبل منظمة أوبك (منظمة الدول المصدرة للنفط في العالم) . ونتيجة لذلك، "أغرق" السوق العالمي بكميات ضخمة من النفط، مما أدى إلى انخفاض أسعار النفط .
- **في عام 1990**، اجتاحت العراق دولة الكويت وأعلن ضمها إليه . وخلال الغزو، تم إحراق العديد من آبار النفط في الكويت . شنت الولايات المتحدة والدول الغربية حرباً ضد العراق سُميت "حرب الخليج"؛ وقد أثارت هذه الأحداث حالة من الهلع المؤقت وأدت إلى ارتفاع أسعار النفط.

خطط التنمية والصعوبات في تطبيقها

تمتلك الدول النفطية أموالاً طائلة، ورغب قادة المنطقة في تطوير المنطقة بسرعة قبل أن تقل كميات النفط لديهم . أراد القادة تطوير المنطقة ونقلها من الوضع الذي كان قائماً كما في العصور القديمة إلى وضع يتلاءم مع القرن الحادي والعشرين . لذلك، وضع قادة المنطقة خطط تنمية كبرى لتطوير الزراعة، الصناعة، المواصلات، الطاقة، والخدمات الصحية . تطلّب تنفيذ هذه الخطط في السعودية وإيران استيراد نحو 850 ألفاً وأكثر من نصف مليون عامل، واستثمار نحو 135 مليار دولار . كما تم التخطيط لبرامج مماثلة في جميع دول الخليج، وبناءً عليه بدأت هذه الدول باستيراد كميات هائلة من المواد الغذائية، الألبسة، الأثاث، السيارات، منشآت الحديد والصلب، الإسمنت، ومحطات توليد الكهرباء . ومع ذلك، نظراً لأن موانئ هذه الدول كانت ملائمة للصيد أو استخراج اللؤلؤ فقط، نشأ ضغط هائل واكتظاظ على الموانئ لدرجة أنها لم تعد قادرة على استيعاب حجم الواردات .

فعلى سبيل المثال، كانت كافة موانئ إيران قادرة على التعامل مع 8 ملايين طن سنوياً، بينما وصل الحجم الفعلي إلى 28 مليون طن . وكان على السفن الانتظار من أسبوعين حتى ستة أشهر حتى يحين دورها للتفريغ . علاوة على ذلك، لم تكن هناك منشآت تخزين في ظهير الموانئ (المناطق الخلفية للموانئ)، ولم تكن تتوفر طرق معبدة تؤدي من المستودعات إلى الوجهة النهائية . كما لم تتوفر شاحنات كافية لنقل البضائع، ولا سائقون للمركبات التي استوردوها، ومن ثم نشأت "اختناقات" (أزمات خانقة) تعذر التغلب عليها، وذلك على الرغم من رغبة هذه الدول في التنمية السريعة وتوفير الأموال اللازمة لديها للتعامل مع هذا العبء . لجأت دول الخليج العربي إلى عدة أساليب لمواجهة ذلك، من بينها استخدام المروحيات لتفريغ السفن، واستيراد البضائع بواسطة الشاحنات من أوروبا . كانت هذه الشاحنات تستغرق أسابيع للوصول إلى وجهتها، وبالتالي كان الجدول الزمني يضطرب . ورغم كل هذه الصعوبات، أُقيمت في دول الخليج موانئ بحرية وجوية يُعد بعضها من بين الأكبر والأفخم في العالم .

الهجرة الكبرى وظاهرة العمالة الوافدة (الأجنبية)

تطلب بناء البنى التحتية وتنفيذ خطط التنمية أيدي عاملة بأعداد ضخمة . ففي عام 1973، تم استقدام عمال أجانب من مختلف أصقاع الأرض، وتدفع عمال بسطاء كثر من اليمن، السودان، باكستان، الهند ومصر، وإلى جانب هؤلاء وصل أيضاً عمال أكثر تخصصاً ومهنية مثل: المعلمين، الأطباء والمرضى من مصر، الأردن، باكستان، الهند، الصين وكوريا . ومن العالم الغربي، تدفق مهندسون ومدرّسون تنفيذيون رفيعو المستوى . وبذلك تقاعد ملايين الأشخاص في دول الخليج العربي وفي الدول النفطية الأخرى . أدت هذه الهجرة الجماعية إلى تغيير في حجم سكان شبه الجزيرة العربية ودول الخليج . في عام 1998 عاش حول شواطئ الخليج وفي المناطق المحيطة القريبة منه نحو 15 إلى 16 مليون نسمة، أقل من ثلثهم من السكان المحليين، بينما نقل نحو 8 إلى 10 ملايين عامل أجنبي وعائلاتهم مكان إقامتهم من بلدانهم الأصلية إلى دول الخليج وشمال إفريقيا . وغالبية هؤلاء العمال من المسلمين القادمين من مصر، تونس، سوريا، اليمن، السودان، الأردن وفلسطينيين كثر . وقد شرعت هذه الدول خلال الـ 25 عاماً الأخيرة في تنفيذ عمليات ترحيل جماعية .

البنية المهنية لطبقات العمال الوافدين تبدو كالتالي:

1. فئة المدراء والمهندسين: مصدرهم بشكل عام من الغرب (أوروبا والولايات المتحدة) .
2. المعلمون والأطباء: بشكل عام من الفلسطينيين .

3. العمال المهرة: وهم المصريون .
4. العمال العاديون (غير المهرة): وهم السودانيون واليمنيون، والذين يتم استبدالهم بالهنود والباكستانيين .

سهّلت معرفة اللغة العربية والعقلية العربية عملية استيعاب هؤلاء العمال . وكانت المداخل العالية للعمال الأجانب تُرسل عادةً إلى بلدانهم الأصلية، لتشكل مصدراً جيداً للعمّلات الأجنبية . بالإضافة إلى ذلك، استفادت الدول المصدرة للعمالة من تخفيف وطأة مشكلة التشغيل والحد من البطالة .

التحضر السريع

بعد أن بدأ ملايين العمال الأجانب بالتدفق، شرعوا في بناء مدن كبرى سرعان ما امتلأت بالسكان، وهو ما قاد بدوره إلى تشييد ناطحات السحاب وتوسيع المطارات والموانئ البحرية . وضُخت عشرات مليارات الدولارات في التخطيط وتأسيس مدن كبرى، غير أن بعضها لم يرقَ إلى مستوى التوقعات المرجوة .

مساعي دول الخليج للوصول إلى الاستقلال الاقتصادي عن النفط

استثمرت الدول النفطية الأموال التي جنتها من تصدير النفط في تطوير بنائها التحتية المادية . كانت هذه العملية تعتمد بالكامل على عائدات تصدير النفط، واقتصاديات هذه الدول النفطية كانت مبنية على مداخل تصدير النفط . وقد قرر قادة الدول النفطية وجوب تأسيس بنية تحتية بشرية حديثة تتيح للدول النفطية البقاء في عصر لن تعود فيه قادرة على الاعتماد على تصدير النفط، سواء لكونه سينضب أو بسبب العثور على مصادر طاقة بديلة له . شرعت دول الخليج في التخطيط لاقتصاد متنوع ومشاريع زراعية، ونظراً للنمو السكاني الهائل والحاجة إلى تزويد السكان بالغذاء الطازج، بدأ بناء مزارع زراعية كبرى لتربية الأبقار والدواجن في بيئات مكيفة هوائياً، علاوة على التربية التقليدية للأغنام

والجمال . بل وقررت المملكة العربية السعودية تحقيق الاكتفاء الذاتي في الإمدادات الغذائية دون اعتبار للتكلفة المالية (تكلفة استيراد كمية القمح المطلوبة تبلغ 0.75 مليار دولار سنوياً مقارنة بـ 3 مليارات دولار استثمرتها سنوياً) . والضرر البيئي الناتج عن ذلك: بدأت زراعة القمح، وفي عام 1984 فاق حجم المحصول كمية استهلاكها، ولذلك بدأت بتصدير القمح . فضلاً عن الضرر البيئي الناجم عن ري القمح بالمياه الأحفورية المستخرجة من الأعماق،

فإن هذه المياه ستندفد في غضون بضعة عقود لكونها غير متجددة، ولذلك تعمل السعودية على تقليص إنتاج المحاصيل سعيّاً لوقف هذا الهدر . وقد أدت جهود السعودية إلى انخفاض وارداتها الغذائية بنسبة 43%، وبالإضافة إلى تصدير القمح أصبحت تصدر أيضاً التمور، منتجات الألبان وغيرها . علاوة على ذلك، استثمرت دول الخليج في المستشفيات، الجامعات، المختبرات، في الخدمات العامة، وفي تطوير المصانع الصناعية، وبناء أساطيل الطيران والأساطيل البحرية، وإقامة أنظمة بنكية ومصرفية مستقلة .

إضافةً إلى كل ذلك، استثمرت دول الخليج في الإبداعات بالبنوك الغربية وفي شراء العقارات في الغرب . وفي تقديم المساعدات لدول العالم الثالث، وخاصة للدول العربية غير النفطية . هذه الجهود التي بذلتها دول الخليج أثمرت ثمارها في جزء منها، والدول التي كان سكانها في ثلاثينيات القرن الماضي يعيشون من الرعي، الصيد، استخراج اللؤلؤ والتجارة، تحولوا إلى كسب الرزق من الزراعة والصناعة . ومع كل ذلك، فإن قوة العمل الأساسية لا تزال تتركز بصورة رئيسية على العمال الأجانب في كافة القطاعات، وهو أمر ينطوي على أخطار اجتماعية وأمنية . ورغم كل هذه التحولات، لا تزال اقتصاديات دول الخليج بعيدة جداً عن اقتصاد دول الغرب، وإذا ما نضب النفط لديها فإنها ستتهار .

تصاعد الأهمية الدولية للنفط

هزات واضطرابات داخلية

أدى التطور السريع إلى اضطراب في أنماط الحياة التقليدية . كما أن هجرة ملايين الأجانب إلى دول الخليج هزت البنية الاجتماعية فيها؛ ففي الكويت، على سبيل المثال، بلغ حجم السكان الأجانب ضعف حجم السكان الأصليين، وهو أمر يندر بحدوث هزات اجتماعية . ولتفادي هذه الهزات، أنشأت دول الخليج أجهزة رقابة صارمة أدت إلى التضييق على الأجانب وإذلالهم، وصولاً إلى نشوء حالة من الاحتقان والغليان ضد السلطات . كما لم تنتظر المؤسسات الدينية بعين الرضا إلى تغلغل الثقافة الغربية، الإعلانات التجارية، واللباس غير المحتشم، والسيارات، والأفلام، والتلفزيون، وغيرها . وبدأت تحدث انقلابات وثورات اجتماعية-دينية كما حدث في إيران عام

1979؛ حيث أطاحت ثورة الخميني الشيعية بالشاه، وكُبح جماح الاندفاع السريع نحو التغريب، وسيطر رجال الدين على الدولة وأقاموا جمهورية إسلامية. وبالإضافة إلى ذلك، استمر وضع الأجانب في التدهور.

هزات واضطرابات خارجية

نظراً لوجود النفط في الخليج العربي، والذي كان سبباً في ثراء بعض الدول، نشأ وضع حسدت فيه الدول المجاورة (مثل الأردن، سوريا، إيران، العراق، اليمن، السودان، وكذلك مصر وتركيا) دول الخليج. استنزفت إيران والعراق مواردهما المالية لتمويل الحرب بينهما بين الأعوام 1980-1986، حيث أنفقنا نحو 300 إلى 500 مليار دولار على التسليح، وهو ما أثار الغيرة لديهما ودفع دول الخليج إلى الشعور بالحسد تجاههما. بالإضافة إلى ذلك، خشيت دول أخرى من انتصار إيران، فصَدَّرت كميات هائلة من النفط لمساعدة العراق، إلا أن هذا الإجراء أغرق السوق العالمي وتسبب في انخفاض حاد في الأسعار وتراجع عائدات الدول المصدرة للنفط. علاوة على ذلك، أدت حرب الخليج عام 1991 إلى أضرار جسيمة في البنى التحتية للعراق، وتوجب عليه استثمار نحو 200 مليار دولار لإعادة إعمار البنية التحتية، فضلاً عن دفع نحو 100 مليار دولار تعويضات للدول المتضررة من الحرب. ومنذ انتهاء حرب الخليج، تزعزعت مكانة منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، وقامت كل دولة بزيادة إنتاجها النفطي، مما أدى إلى انخفاض أسعار النفط وإلحاق الضرر بالوضع الاقتصادي لمصدري النفط. ومنذ عام 1973، أنفقت دول الخليج مبلغاً يقارب 1000 مليار دولار على التسليح، ورغم ذلك لا يسود شعور بالأمان، بل يظل هناك خوف وقلق دائم من تمرد الأجانب أو السكان المحليين على خلفية التمييز والإجحاف، ومن استهداف الأسرة الحاكمة، ومن وقوع انقلابات دينية يقودها رجال الدين.

تأثيرات النفط على الشرق الأوسط بأكمله

إن التركيز الهائل للنفط وللأموال في دول الخليج العربي يلقي بظلاله وتأثيراته على الدول النفطية ذاتها، وكذلك على الدول المجاورة لها؛ وذلك لأن هذه الدول تتلقى عوائد مالية مقابل مرور النفط عبر أراضيها بواسطة أنابيب النفط أو عبر الطرق البحرية، أو في هيئة مساعدات مالية بحكم كونها دولاً عربية/إسلامية، أو من خلال إرسال عمالة وافدة إلى الدول النفطية والاستفادة من تحويلات أجورهم إلى أوطانهم. وتُعتبر إسرائيل حالة استثنائية وشاذة في المنطقة، ومع ذلك فقد استفادت من النفط بعدة سبل: تمر عبرها خطوط أنابيب نفط. يتلقى سكان غزة والضفة الغربية (يهودا والسامرة) دعماً مالياً من دول الخليج العربي. تحصل إسرائيل على النفط من مصر. خلال الفترة التي سيطرت فيها إسرائيل على شبه جزيرة سيناء، استخرجت النفط هناك. وكانت إسرائيل طرفاً فاعلاً ومتورطاً للغاية في هذه المسألة عبر الأحداث التالية: ثلاث حروب بين إسرائيل ومصر — حرب 1956 ("حملة قadesh")، وحرب 1967 ("حرب الأيام الستة")، وحرب 1973 ("حرب تشرين / يوم الغفران") — أدت إلى إغلاق قناة السويس، وارتفاع أسعار النفط عالمياً، وتفجر "أزمة الطاقة". أموال النفط كانت ولا تزال تمول أيضاً الأطراف المناوئة لإسرائيل؛ فعلى سبيل المثال، هناك أموال تُقَدَّم من إيران لمساعدة حزب الله في لبنان وفصائل المقاومة الفلسطينية، ولإعادة إعمار وتأهيل أنقاض سوريا في أعقاب الحرب.

الغرب يحمي آبار نفطه

نظراً لأهمية النفط البالغة بالنسبة للدول العظمى، أصبحت منشآت النفط أهدافاً عسكرية. ورغم ذلك، تعرضت مصافي النفط وآبار النفط في السويس، والخليج العربي، وصيدا، وطرابلس للحرق، وشكلت مصبات النفط أهدافاً رئيسية للقصف. وخلال الحرب العراقية الإيرانية دُمِرت البنى التحتية النفطية للكويت على يد العراق في "حرب الخليج". وبما أن النفط سلعة حيوية للغاية، فإن الدول الغربية مستعدة لفعل كل شيء، بما في ذلك خوض الحروب كما حدث في مرات عدة، من أجل ضمان إمدادات النفط واستقرارها. ولهذا السبب يوجد وجود عسكري أمريكي دائم في منطقة الخليج. وتتركز سياسة الدول العظمى بدرجة كبيرة على ضمان التدفق السلس والمنتظم للنفط من الخليج العربي باتجاه الغرب، مع ضرورة تأمين تعاون 23 من مختلف الأطراف في المنطقة، والحفاظ على الهدوء في الشرق الأوسط وتفادي الحروب، وهو أمر ليس باليسير إطلاقاً في ظل تعقيدات المنطقة التي تشهد إسلاماً راديكالياً، ونزعات عداء للغرب وخاصة للولايات المتحدة، ونمواً سكانياً طبعياً مرتفعاً يكرس الفقر المدقع، وإرهاباً نشطاً ضد الحكومات (في الجزائر، ومصر، والسودان، ولبنان وغيرها)، وصراعاً عربياً-إسرائيلياً مستمراً، وتعاضماً إيرانياً مهدداً. وتضمن احتياطات النفط الهائلة في دول الخليج بقاء أهمية هذه المنطقة لعقود طويلة قادمة. وتُعتبر أسعار النفط معقولة، ويتدفق النفط نحو وجهاته بأمان نسبي، ومن ثم لا توجد حاجة ملحة لاستكشاف مصادر نفط أخرى بعيدة في أرجاء العالم مثل الصين، وروسيا، وأعماق الجرف القاري في البحار والمحيطات. وكلما تم اكتشاف المزيد من مصادر النفط سينخفض سعره، وتراجع تبايعاً مكانة الخليج العربي.